السِّيرة

في مَصَادِرِهَا التَارِيخيةِ والأدبيةِ والشعبيةِ

عادل كامل الآلوسي

عمنا الفاضل الأستاذ
سالم الآلوسي
المحترم
تحية إجلال وتقدير واكبار .
عادل كامل الآلوسي
بغداد ١٩٨٧

"نص المحاضرة التي ألقيت في جمعية المستشرقين الانجليز في ايلول ١٩٨٤ / في قاعة "ادوارد بولوك" في اكسفورد .

السيرة

في مصادرها التاريخية والادبية والشعبية
(مع عرض للبطولة)

مقدمة :

قد تكون السيرة جزءاً من التاريخ ، ربما هي والتاريخ شيء واحد ، لان صانعهما هو الانسان ، لانهما يتحدثان عن الانسان عن قصة حياته عن تحركه ضمن اطار الزمن ، عن تفاعله مع الاحداث .

لافرق ان تكون السيرة بعضاً من التاريخ او ان تكون هي والتاريخ بعينه مادام الهدف واحداً .. البحث عن الخلود : تلك هي الفكرة اذن .

السيرة تريد ان توءكد لصاحبها (لبطلها) صفة الخلود والتراث الانساني غني بالحكايات والقصص والسير التي تدور رحاها حول الانسان وهناك الاعمال الادبية المبكرة التي تمجد الانسان ومقاومته المستمرة للفناء، وثمة اعمال اتجهت نحو الاعتقاد المتاصل بالروح كفكرة تناسخ الارواح والتشكل وغيرهما (١)

بدات السيرة تدويناً لحياة معينة ، وتطورت بحسب تطورات الحياة الجماعية ، صحيح انها استمدت عناصرها من الواقع ، لكنها لم تر في الواقع ما يشبعها : لان النزعة الانسانية نحو الواقعية لم تكن قد اكتملت بعد ، في تلك الفترات المبكرة من عمر الانسان الحضاري .

ومنذ ان كانت الاسطورة لغة المفارقة ، مفارقة الانسان بالنسبة الى الطبيعة ، كان الانسان يمزج السيرة بالخيال وبالاسطورة ويستمد عناصره منهما .

السيرة والبطل :

لأن الأديان تتجة نحو اله لم يستطع البشر تحديد قدرته وكنهه ، كان لابد ان يكون هناك وسيط ، وكان الوسيط هو البطل ، الذي ينبع من الخيال ، من الاسطورة ، ومن هنا جاءت اهم واقدم الاساطير ، تفسيراً للعلاقات المتبادلة بين الآلهة والبشر ، فكل منهما يتمتع بقدرات جسدية ومعنوية خارقة .

وهكذا انتهى منهج الدرس المقارن للاساطير الى هذه النقطة ، وهي ان الاساطير نابعة كلها من وحدة التفكير الانساني ، لان الاساطير مستودع لاختزان فعاليات انسانية شتى .

وعندما تحرر الانسان قليلا باتجاه ادراكه لذاته ولوجود الاشياء من حوله ، حاول ان يحرك السكون الذي فرضه على نفسه في صلته بالغيب ، وبالقوى غير المنظورة التي عانى العذابات من اجل تفسيره لبا وتقريبها الى فهمه فأدخل عواطف بشرية الى الابطال الذين تجسدوا في دهنه بما يمتلكوه من قوى خارقة . وكان حبه المطلق لهم واعجابه وخوفه منهم ، حالات متباينة تمتزج في قرارة روحه ولكنها تعصف فيه بين الحين والحين ، من هنا تفجّر فيه الايمان بالخوارق والمعجزات ايمان قد انتهى به الى عبادة اولئك الابطال ، وعبادة الابطال من السلف Ancestor worship كانت فرعاً من فروع الدين ، بل كانت بحسب من ارّخ للاسطورة هي الاساس الذي قامت الاديان القديمة عليه .

من العراق القديم (البابليون على وجه التحديد) تعرّفنا على اقدم النماذج من عبادة الابطال ، وما وصلنا من عرب الجزيرة في هذا الاتجاه قليل ، وربما وجدنا صدى هذا الاتجاه في بعض الطقوس (حلق الراس ، احداث جروح في الجسد ، احتفالات دفن الموتى ، لبس المسوح ، العناية بالاضرحة ..)

في الاسلام نجد الاتجاه ذاته يتكشّف ويأخذ مساراً آخر باتجاه التوحيد لله خالق كل شيء ، وخالق الابطال انفسهم ، وهكذا تتضاءل بطولة الانسان امام عظمة الله فالرسول (ص) يدعو الى تسوية القبور ، وينهي الوساطة ، ولئن اعتبر بعض المستشرقين ان الوحي ظاهرة وسائطية. فذلك لانهم فهموا الوحي خطأ .

البطل الوهمي والبطل الحقيقي في السيرة :

في الكثير من السير كان الخلط واضحاً في ابراز دوري البطل الاسطوري والبطل الحقيقي .

في الفكر الاسلامي ـ مثلا ـ تضمر فكرة البطولة الاسطورية (الوهمية) لتظهر البطولة بمعناها الواقعي ، متمثلة في سير عظيمة ، جاء تخليدها ضرورة تاريخيّة وانسانية . ومن هذه النقطة بالذات يبدو الخيط الرفيع الذي يفصل بين البطولتين الاسطورية والواقعية .

اننا مضطرون ـ لهذا ان نميز بين البطولتين لانهما امتزجتا واختلطتا في أذهان الكثير من الباحثين من الذين اجازوا لأنفسهم اعتبار بعض السير الاسلامية والعربية سيراً اسطورية متأثرين بذلك بما وقفوا عليه من سير الاساطير والملاحم العالمية .

المنطق يقول : ان البطل الاسطوري هو الذي لا حقيقة له ، او الذي يشكّ في وجوده ، وقد خلّدت بعض الاعمال الادبية العظيمة تلك السير الاسطورية ، لابطال اسطوريين امثال أخيل ، رستم ، شمشون ، سيكفرد ، سيزيف ، بروموثيوس ، أزريس ، وابطال اساطير الفروسية في القرون الوسطى والذي صوّرها الاسكندر دوماس ، سرفانتس ، وغيرهم .

والمنطق يقول : ان البطل الاسطوري هو الذي تمثله سير القادة والعظماء والانبياء والمصلحين ممن جاءوا الى هذا العالم وسجلوا حضورهم التاريخي في فترات موثّقة .

صحيح ان البطلين الاسطوري والحقيقي يسيران معاً عن طريق التجربة الانسانية ، وانهما معاً خلّدا في ضميرها ، لكن الاول وقف عند حدود (الميثالوجيا) وقد ينتهي الى الابد في نهايتها ، فيما بقّي وسيبقى الثاني يتفاعل مع الاحداث جيلا بعد جيل ، وينساب الى أبعد ثنايا التفكير الانساني واصغر زوايا الحياة .

البطل الميثالوجي هو التجسيد الملحمي الحي للاحلام والمخاوف التي عاشتها المجتمعات الانسانية في طفولتها ، وبعض الفترات الخاصة من اعمارها ، اما البطل الحقيقي فهو انعكاس حي للواقع وتجسيد له .

البطل الميثالوجي هو ابداع خلاق نتج عن ذهنية فكرية وادبية رائعة ، كما في ابطال الحضارات ، كلكامش ، انكيدو ، شمشون ، هرقل ، افراسياب ، غيرهم من ابطال القصص والملاحم ، اما البطل الحقيقي فهو الذي ترك آثاره حية في خط متواصل مع الزمن كما في سير الرسل والانبياء والقادة والزعماء والفاتحين والفلاسفة والمفكرين والشعراء والمعلمين .

الميثالوجيا قد تسقط بطلها ، وتهوي بـه مـن السعادة الى الشقاء وتنتهي به بشكل مفاجيء وعاجل صفة العظمة التي كانت قد رسمتها له الميثولوجيا .وهنا تكمن نقطة الضعف في شخصية ذلك النوع من الابطال فالميثولوجيا لم تستطع ان تجعل بطلها كامل الفضيلة والقدرة على التعبير وانجاز المهام والاهداف التي ظهر لأجلها لأنه بدون ذلك لايتحقق الجانب التراجيدي من الميثالوجيا .

الحقيقة تشعرنا ان بطلها يشبهنا ، فهو منا رغم اننا نميل بطبيعتنا الى التفخيم بشأن انفسنا ولمن نحب وبمن نعجب ، فنعتقد باننا في صميمنا نماذج للخير فقلما نعفي انفسنا من اللوم .

هذا الموقف يحرك فينا الميل الـى ابطالنـا ، الى الالتحام بهـم ، وتقليدهم لأن خطأ بطلنا ـ بمفهومنا ـ ليس الا سقطة واحدة ، لا يعتد بها من بين فضائلة الكثيرة .

الميثالوجيا تقدم بطلها باشكال شتى فمرة اله ومرة انسان ومرة يجمع بين الاله والانسان ، وربما ـ حين يعود البطل ـ كما في المعتقد الطوطمي فقد يعود في صورة حيوان او نبات تقدسه القبيلة وتنتسب اليه ، وهو لايشعر بحدود فاصلة بينه وبين العالم الذي يعيشه ، فالادب الاغريقي يستخدم التنبؤآت ثم يكشف عن سيرة البطل منذ البدء ، فيأخذ من شخص عادي ثم يحمله اكثر من طاقته ، وبالتالي يخلّده كما في اوديب عند سوفكليس ، وشكسبير اخذ من الأدب الأغريقي ، ولكنه امد البطل بصفات من عبقريته التي كرس فيها ابطاله المأساويين Tragicheros امثال هملت ، مكبث ، اتيلو (عطيل) ، الملك لير ، جوليس سيزر (يوليوس قيصر) :

الحقيقة تنبأنا بأن بطلها انسان يحيى ويموت ، وفي المعتقد السماوي فأنه يبعث في الدنيا الآخرة او (العالم الآخر) انسانا فحسب ، لايعود حيواناً ولا نباتا . لايعود نصفه إنسان ونصفه الآخر حيوان ، (كما في بعض شخوص الاساطير وابطالها) انسان محدود في اطار عالمه مرتبط بماضيه ، مرتبط بحاضره . تتحد ابعاد شخصيته مما ورد عنه من مدونات صحيحة وثابتة ومن تواتر الاخبار ومن الكشوفات التاريخية والاثرية المعتمدة على العلم والدرس المقارن والاستنتاج المنطقي .

وهنا نقف ونتساءل : هل بقي ابطالنا الحقيقيـون بمنجـى عـن التصورات التي سقط في شراكها البطل الاسطوري ؟

من المؤكد ان يصدر الجواب الى النفي . لماذا ؟

ان البطل ظاهرة توفرت عليها الكتب المقدسة ومصادر السير والتاريخ ، وتحددت سيرة البطل في اطار من الطبيعة الخيرة والنبيلة . فالابطال هنا من هذا الطراز . بمعنى آخر انها سير مقدسة . كاولئك الانبياء والقديسين الذين يقفون مع الانسان على طريق البداية . وينهضون لدفع الظلم عن الانسان . لذلك فان تلك المدونات ـ المقدسة والتاريخية ـ تمنح ابطالها القدرة على تجاوز قوانين الطبيعة لان انسانيتهم غير خالصة ، ولان فيها شيء من طبيعة الله وارادته . فكثيراً ما يعتمد الرسل والمصلحون اتباعهم على القدرة الالهية ، الى جانب ذلك فان الابطال الحقيقين والقديسين يعتمدون على انفسهم في اتخاذ القرارات . وخوضهم لمترك الحياة بالاستناد الى قدراتهم الذاتية . ومسالة الاعتماد على الذات والرجوع الى العقل والفكر موقف يرد حتى في سير الابطال الميثالوجين فان اجامنون في تراجيدتيه ، اسكيلوس نجده بطلا يزن الامور بعقله ثم ينفذها بأرادته القوية .

من هذا المدخل سننفذ الى سيرة بعينها تمثل لنا نموذجا للسيرة الحقيقية المتكامله ، والتي الى جانب اعتمادها على قيم السماء فهي سيرة استمدت وجودها من الواقع من العقل والفكر والاعتماد على الذات :

السيـرة النبويـة :

ارتسمت السيرة النبوية بكامل جلالها في اذهان المسلمين واعتبرت المثل الانساني الاعلى ، وكانت حياة الرسول (ص) هدف الدارسين من مسلمين وغير مسلمين ، وبادر المستشرقون الى دراسة السيرة النبوية على ضوء السير المتوارثة عن كتب الاقدمين ومن مصادر (الاسرائيليات) التي نقلت السيرة النبوية الكريمة بأسلوب ناقص ومشوه .

لقد كان القصاص ، اولئك الرواة المحترفون للقصص الذين انتشروا في ارجاء العالم الاسلامي بعد الفتوح العربية الاولى مباشرة . هم اول من الف واذاع عن حياة الرسول ، لقد ادخل اولئك القصاص عناصر غريبة صنفوها على منوال تلك الاساطير الواردة في التوارة والانجيل والقصص الفارسيّة الأصل .

لقد نشأ نوع من التاليف ينتمي الى القصص والروايات ذات الطابع الاسطوري اكثر من انتمائه الى السير والتاريخ ، ان كتابة القصص والروايات . لون من التاليف اسلامي النشأة او هو على الأقل اسلامي الطابع . اما العصر الجاهلي فليس له لون واضح في تاليف كما في سير

البارزين من الناس كالملوك والابطال ، كما لا نعرف كتبا التفت في ذلك العصر عن الوقائع والحروب التي وقعت ، سواء بين القبائل العربية بعضها وبعض او بين العرب وغيرها من الشعوب المجاورة الا الشيء القليل باستثناء القصص والروايات المختلفة والأخبار المعروفة «بايام العرب» . اذن نحن – في السير والمغازي – ازاء فن اسلامي جديد . نجد اقرب واقدم شاهد عليه كتاب (المغازي) لوهب بن منبه (١١٠هـ) الذي ترجع شهرته بصفة خاصة الى ما فيه من آثار تتصل بالكتب المقدسة القديمة وتاريخ جنوبي بلاد العرب . ومما اضاف الصفة الاسلامية الى ذلك الاتجاه في التاليف المفاهيم الواردة ضمن اطار العصر الاسلامي نفسه ، فنحن نعرف ان العرب عنوا بانسابهم وسلاسل هذه الانساب عناية فائقة لم تشركهم فيها امة من الامم الاخرى ومما يذكر ان في هذا الصدد ، ان رجالا عرفوا باختصاصهم في معرفة وتتبع الانساب كأبي بكر الصديق نفسه ، فقد كان نسابة اي عارفا بأنساب القبائل وما تفرّع عنها وظلت الانساب علما يتداوله العرب بطريق الرواية .

ومن هنا نجد ان كتب السير النبوية قد الحّت واكدت على تقصي اخبار آباء النبي واجداده ومن يتصل به عن طريق القرابة منذ ولادته الى وفاته وتقديم ذلك كله بين يدي سيرته .

المستشرقون ودراسة السيره :

وهكذا عقدت دراسات للسيرة النبوية اعتمدها المستشرقون كما ذكرنا قبل تنيل بنوها على اتجاهات مختلفة لكنها كانت في مجملها تستمد بناءها مما ورد عن السيرة في مصادر الاسرائيليات ، او على الاقل المصادر اللااسلامية . المنحى .

كولدزيهر : «ان السيرة في صورتها الادبية التي وصلت الينا انما هي مجموعة من الاحاديث المرويّة لايختلف في طريقة تكوينها اختلافا جوهريا عن الاحاديث المسلم بصحتها»

ويقول لامنس : «كل حادث ترويه السيرة ، كل تفصيل تاريخي مزعوم ؛ ليس الا نتيجة لتفسير ذاتي لآية من القرآن استنبط منه اصحاب مدرسة المدينة ، مستعينين في ذلك بشتى التوقيفات الفقهية ، وبالاصول الدخلية . فلا نجد للحوادث التي دونوها سندا من الرواية التاريخيّة ..»، وذهب كايتاني مذهب لامنس .

لقد غاب عن ذهن أولئك المستشرقين وجود كتباً تاريخية تمثل سير كاملة لحياة الرسول . صحيح ان تلك المصادر لاتخلو من تخليد لذكر المغازي على غرار الاسلوب العربي القديم ، لكنها لم تكن استمراراً حقيقياً لأيام العرب ، كما كانت عليه تماماً في خصائص اسلوبها العذب المرسل على السجية ، مع توفرها على شواهد شعرية .

بمعنى آخر ، لقد اراد المستشرقون أن يفرضوا على التاريخ فهمهم الذي يقول ان السيرة النبوية كما وردت في مصادرها الاساسية مليئة بالعناصر الاسطورية ، وانها صورة ادبية متأثرة بما ورد عن حياة الانبياء السابقين والقديسين وكما قال بذلك شبرنكر Sprenger ونولدكة .

ويبدو أن النزعة القصصية في كتب السيرة القديمة ككتاب ابن اسحق ، فبالرغم من العنصر التاريخي المتين الذي يمتلكه والذي يرجع بالدرجة الاولى الى الزهري وبعض المحدثين قد اعان المنهج الاستشراقي في كتابة السيرة فهو متأثر كثيراً بنزعة القصص الشعبي التي يغلب عليها عنصر التسلية او التقوى او الفخر او المديح مع كثير من الشعر الموضوع ؛ ومتأثر ايضاً بأخبار وهب بن منبه في فترة ما قبل الاسلام خاصة . عندئذ يتضح التباين والخطورة في هذه العناصر ، التي تكون مادة السيرة لدى ابن اسحق .

وهكذا جاءت مواد السيرة الاولية بأيدي المستشرقين مزيجاً غريباً ومتناقضاً نضيف على ذلك ماوجده المستشرقون من مواد في السيرة تمثل روايات المحدثين واستطرادات تاريخية للرسالة الاسلامية وهنا امتزجت الكتابة عن سيرة الرسول بالكتابة عن طبيعة الرسالة الاسلامية ذاتها .

من هنا كان خلط المستشرقين في دراسة السيرة النبوية مستمداً من الخلط الذي وجدوه في مصادرها الاولى ، حتى جاءت دراساتهم بما اضافوه اليها من عنصر الوهم الذي اسموه تحليلا ، قريباً الى الاسلوب نفسه الذي عالجوا فيه القصص المتعلقة بأيام العرب .

ان هناك من كتب السير القديمة ، السيرة التي كتبها عروة بن الزبير (٢٣-٩٤هـ) وسيرة ابان بن عثمان ، الذي عاصر عروة بن الزبير ، جمع دروسه عن حياة النبي (ص) في كتاب تلميذه عبدالرحمن بن المغيرة ،وعاصم بن عمر بن قتادة (ت بين سنتي (١١٩) و (١٢٩هـ) وسيرة ابن شهاب الزهري (٥١-١٢٤هـ) وسيرة موسى بن عقبة (١٤١هـ) والسيرتان الاخيرتان لهما اثر مشهود على جميع الروايات المتأخرة .

ولكن – فيما يبدو – ان سيرة ابن اسحق بن يسار تبقى السيرة المعتمدة للكثيرين من كتابها على مر العصور هي وسيرة ابن هشام ومما اضاف اليها هذه الاهمية ماقيل وذكر فيها كقول الامام الشافعي : «من اراد ان يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن اسحق»

على اننا يجب ان ننتبه الى ملاحظة مهمة وهي ان معظم كتاب السيرة النبوية الاوائل قد التقوا – رغم اختلاف مناهجهم . على ابراز القيمة الاخلاقية في السيرة ، فكان الطبري مثلا يهمه ان يبرز قيمة الاسلام بالنسبة الى المسلمين . وقد نجد هذا الاتجاه ذاته لدى ابن سيد الناس في عيون الاثر . وابن كثير في (البداية والنهاية) وغيرهم كثيرون ، ولم تكن استطراداتهم الا بغية ابراز الخصائص العالمية في السيرة النبوية وفي الرسالة الاسلامية ايضاً .

إننا لوكنا وقفنا على سير كتبت من قبل الصحابة لكنا قد حصلنا على مادة اكثر واقعية وصدقاً ودقة من تلك السير القديمة ، ولكن لم يعنى احد من صحابة الرسول بجمع اخباره اذ كانوا مشغولين بالجهاد والفتوح . وانما التفت الى هذا فريق من التابعين فكانوا يسألون عمن شاهد الغزوات من الصحابة . ومن صاحب الاحداث ويجمعون ما استفاض واشتهر من الأخبار . ومع ذلك فقد بقي ينقص تلك السير السند المتصل مثل الحديث الصحيح المتواتر الذي يحتاج دائماً الى السند ليكون حديثاً من الاحاديث الصحاح .

البطولة في السيرة النبوية

لقد دفعت كتابة السيرة اصحابها الى التماس النموذج البطل ، فلم يعد اولئك الكتاب المسلمون ليهمهم ان يبرزوا سير الملوك الاقدمين ، لان في سيرة النبي محمد (ص) ما يغنيهم ، لقد كانوا المعبرين عن نفسية الشعب العربي الذي ظل دائماً متعلقاً بشخصية البطل ، هذه الشخصية التي يعبرون من خلالها عن آمالهم وطموحاتهم .

وهكذا جاءت شخصية الرسول بما تمتلكه من غنى واصالة عربية الصورة التي يبحث عنها العرب ، لقد اخذت هذه الشخصيه تملأ نفوسهم وتذهب عنهم التصورات القبلية . لقد احس العرب بعد الاسلام انهم اصحاب رسالة وعليهم مهمة نشرها ، هذا الحلم القديم يصير حقيقة ، ويتجسد بشخصية الرسول . وبذلك اكتملت في شخصية الرسول كل مقومات البطل بما تمتاز به من قيم عربية وردت في القصص العربي القديم ، رجل عربي شريف النسب يحارب الكفر والظلم بقوة السيف والعدل .

لقد حقق الرسول الكريم اهداف العرب السامية واقام دولة جديدة ذات حضارة جديدة .

مصادر السيرة النبوية :

١ ـ السيرة النبوية : ابن هشام (عبدالملك ت ٢١٨/٨٣٤م) اعتمد فيها على سيرة ابن اسحق ، وتعدُّ من اقدم المراجع لسيرة الرسول . يتناول حياة الرسول في مراحلها المختلفة)

شروحها :

أ ـ الروض الانف : السهيلي (عبدالرحمن بن عبدالله ت ٥٨١هـ/١١٨٥م)

ب ـ شرح السيرة النبوية : الخشني (ابو ذر بن محمد بن مسعود)

ومن الطبيعي ان ترد اخبار السيرة الكريمة في كتب التاريخ الاسلامي واهمها :

١ ـ الاخبار الطوال : الدينوري (احمد بن داود ، ابو حنيفة ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥ م)

٢ ـ تاريخ اليعقوبي : اليعقوبي (احمد بن اسحق بن واضح ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٥ م)

٣ ـ تاريخ الطبري : الطبري (محمد بن جرير ت ٣١٠هـ/٩٢٣م)

٤ ـ تجارب الامم وتعاقب الهمم : مسكويه (احمد بن محمد ت٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)

٥ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودي (علي بن الحسن ت٣٤٥هـ /٩٥٦ م)

٦ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والامم : ابن الجوزي (ابو الفرج ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)

٧ ـ الكامل في التاريخ : ابن الاثير (عزالدين ٦٣٠هـ/١٢٣٣م)

٨ ـ المختصر في اخبار البشر : ابو الفداء (المؤيد اسماعيل بن عمر ت٧٢٣ هـ/١٣٣١ م) .

٩ ـ تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام : الذهبي (عمر بن احمد ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٨م)

١٠ ـ البداية والنهاية : ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن عمر ت٧٧٤هـ /١٣٧٢م)

١١ ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ابن خلدون (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)

١٢ ـ اخبار الدول وآثار الاول في التاريخ : القرماني (احمد بن يوسف بن سنان ت١٠١٩هـ/١٦١٠م)

السيـــره الشعبيــه :

مقدمـــــة :

بعد السيرة النبويه جاء ترتيب رجال المسلمين طبقات بحســب الاسبقية في الاسلام . وتلك من الاسباب التي جعلتهم يرتبون اخبارهم في التاريخ الاسلامي ترتيباً زمنياً .

ثم اصبح التحقيق التاريخي او التحقيق العلمي في المراحل التالية يطبع الكثير من مؤلفات العرب وكتابة سيرهم ، حتى بدات كتابة السير تتأثر بما كان معروفاً ومنتشراً في ادبيات الامم الاخرى ، فكانت اسواق مكة الادبية حافلة بسماع السير العربية وغير العربية ، وكذلك ساهم الادب المكتوب في هذا بما نقله الجاحظ عن كتاب «خداي نامه» وغيره من الكتاب .

الى جانب مازخرت به المكتبة العربية الرسمية من السير والتراجم التي إتبع اكثرها التاريخ المحقق ومحاولات حصر الابطال والاعلام في كل علم وفن حتى توسع مؤلفو العرب في تلك التراجم كتراجم الصعاليك . والمجانين . والمغفلين ، بل ترجموا للمدن ولغيرها ممن ليس بعاقل ..

لقد مهدت تلك المحاولات لظهور فن جديد مع ان له اصولا قديمة ، ذلك هو فن السيرة الشعبيّة ، وربماكانت بدايات البحث في السيـرة الشعبيّة تعود في اصولها الى المحاولات الاولى لعلم الانثروبولوجيا الذي انطلق به العالم الانجليزي جميس فريزر James Frazer بكتابه المعروف «الغصن الذهبي» الذي دار حول البحث في الاساطير والعادات والتقاليد البدائية ضمن نظرية جديدة . وكان ان ظهرت نظرايات اكثر علمية مـن نظرية فريزر لانها كانت تعتمد على الدراسة الميدانية المقارنة ، ثم ظهرت دراسات آخرى تمتازبعصريتها وحداثتها وخاصة تلك التي تدور حول تأثير الحكايات والاساطير والخرافات والقصص على تطور الفكر الانساني .

ان معظم تلك الدراسات كان محورها الحكاية الشعبية والاسطورة وكثيرا ما كانت تدرسان معاً باعتبارهما شئياً واحدا . فيما اجتهدت دراسات اخرى بالفصل بينهما او بأدخال السيرة معهما كجزء متمم .

لاشك ان في الكثير من السير والسير الشعبية على وجه الخصوص عروقاً اسطورية ، انبتها وغذاها الخيال الشعبي الخصب .

لقد حفل التراث الشعبي بمأثوراته المدونة والشفاهية من عادات وتقاليد ومعتقدات كالفال والطيرة والحسد والعفاريت والسحرة ، وقد اثرت هذه كلها في السيرة الشعبية بل اصبحت سمة من سماتها ، وليس

من شك ان السيرة الشعبية اعتمدت واستمدت بناءها من التاريخ ايضاً اعتماداً واعياً او غير واع . ثم سمحت للترسبات الخالية ان تلعب دورها في ترتيب الحدث التاريخي مضافاً اليها العوامل النفسية والرؤيا القومية المتجسدة في النضال والمقاومة وابراز الخصائص العربية ذات الصفات والاخلاق العظيمة .

لقد فعلت تلك العوامل مجتمعة فعلها في تطويع فن السيرة الشعبية بما يناسب مقتضيات الزمان والمكان .

المثال والنمــوذج :

وعلى مدى التاريخ العربي كان الادب الشعبي معبراً عن حياة الانسان العربي في مختلف جوانبها .

وسيرنا الشعبية لم تكن – كما يتصورها البعض – مجرد حكايات للتسلية وانما هي اعمال فنية ادبية متكاملة لها معطياتها من ناحية المضامين والعطاء الفني . ومعطياتها من ناحية تعرضها لقضية الحرية والبطولة والتفرقة العنصرية وقضية المراة وبحث الانسان على ذاته ؛ كما صورت التسامح العربي وابرزت القيم الاسلامية وفرقت بين السلام والاستسلام . كما ابرزت الفضائل والقيم . والسير الشعبية العربيةتراث واسع تذوقتها وحفظتها الاجيال ، ولقد اعادت عبقرية الاجيال صياغتها مرة بعد مرّة شعراً ونثراً ؛ فمنها مايعود الى العصر الجاهلي ؛ ومنها مايعود الى العصور الاسلامية في مختلف البلدان والاقطار الاسلامية ، ومنها مايعود الى عصور متأخرة كالعصر المملوكي ، ولذا فان رصيدنا من تلك السير الشعبية كبير .

السيرة الشعبية بين ايدي المستشرقــين

ولقد قدر للسيرة الشعبية ان تصار بين ايدي الباحثين من المستشرقين شانها شأن المجالات التاريخية والادبية العربية الاخرى التي تعرضوا لها وكانت النتيجة ان تدرس وتحلل على ضوء المنطق الاستشراقي، يقول المستشرق الفرنسي «ارنست رنيان» ان السيرة الشعبية جاءت معبرة عن افتقار الشعب العربي الى التجسيم الملحمي والدرامي . والواقع ان الامة العربية لها معطياتها الميثالوجيّة ، وان تلك المعطيات مبثوثة في

كتب التاريخ العام وفي مصادر كثيرة وهو تستكمل كل مقومات الملحمة والبطولة في الادب الشعبي ولكنها لم تستخلص كلها بشكل يجسدها على النحو الذي نريد ، لقد عرف العرب الفن الملحمي وقدموا ملاحم خالدة .

ان الملحمة الشعبية العربية تمهد دائماً لظهور البطل منذ ظهوره وتتابعه عبر مراحل حياته وتقف عند مرحلة النضوج والاكتمال فيه لتهيؤه لاحداثها الضخمة .

البطولة في السيرة الشعبية

لقد ادت السير الشعبية دورها في ايقاظ الوجدان وتمثيل المثل العليا والقيم الانسانية والاجتماعية للعرب تمثيلاً حياً فالشهامة والمروءة والشجاعة في الحروب والوفاء والسماحة والخير والعدل الى سائر القيم التي تمثل صفات البطولة في تاريخنا العربي نراها ممثلة في السير الشعبية .

وهكذا تمتلأ سيرنا الشعبية بنماذج حقيقية عاشت يوما ثم رفعتها حياتها الى مرتبة الابطال ، ومن خلال ابطال حقيقيين تأريخيين او وهميين استطاعت السيرة الشعبية ان تصور وان تؤثر وان تحفظ للأمة وجداناً سليماً ووجوداً كريماً ، وبرغم ان تلك السير قد اغفلت التاريخ احياناً وحرفته فأنما لتخلق لابطالها دوراً مهماً ولتعطي للعمل كله اثراً فنياً معيناً .

لقد ظلت الاجيال العربية تطلق على ابنائها اسماء اولئك الابطال الشعبيين ، ولهج بهم المجتمع العربي طويلاً بفضائلهم التي تمثّل الشخصية العربية بكامل افعالها .

اصول دراسة السير الشعبية

ان كتب التاريخ العربي القديم تشكل احدى الموارد الرئيسية للسير الشعبية . مثل كتاب (اليجّان) لوهب بن منبه و (اخبار ملوك اليمن) لعبيد بن شريه الجرهمي ، كما ان كتب أيام العرب وكتب الغزوات تحمل لنا صوراً من الحياة الاجتماعية من خارج الجزيرة العربية كما أن كتب الفتوحات مثل كتاب «فتوح الشام» للواقدي نجد صور تلك السير ايضاً .

باتجاه آخر نجد السيرة الشعبية تبرز واضحة المعالم في كتب الاقاصيص والسير العامة والملاحم والحكايات كما في (الف ليلة وليلة) اضافة الى كتب السير الشعبية الكاملة والتي وردت بنصوص متقاربة او مختلفة كثيراً او قليلا كسيرة عنترة وسيرة سيف بن ذي يزن وسيرة الظاهر بيبرس وغيرها .

قصص

وفي تراثنا الاسلامي والعربي قصصاً كثيرة وملاحم واساطير ، بوسعنا ان نحصل منها على مادة غزيرة تشكل باضافاتها وجمعها وتصنيفها سيرا شعبية متكاملة

ان في القرآن الكريم والكتب الدينية اصداء لتلك السير ، ثم ان لدى القصاصين الاسلاميين مثل تميم الداري حكايات تروي سيرة الرسول ومغازيه وسير اصحابه ، تحمل الطابع الشعبي في سرد الحكاية . وقد ظهر الكثيرون ممن تبنوا هذا الاتجاه لدى اصحاب المغازي مثل ابان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير وكعب الاحبار وعبدالله بن عباس .

في استطرادات المؤرخين والكتاب العرب اشارات مهمة الى السير الشعبية ، بل اننا كثيراً مانقف على اشارات ونقود او تعريفات لتلك السير في كتب الطبقات والحديث والتفسير ، حتى ليقول السيوطي ، في كتاب الاتقان (١) : «وللمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والامم الخالية ، ونقلوا اخبارهم ، ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا واول الاشياء وسموا ذلك بالتأريخ والقصص»

ولقد جاء بعد ذلك نوع من الخلط بين السير الشعبية والقصص في الدراسات المعاصرة ، وللباحثين في ذلك الخلط بعض الحق اذ ان اصول السيرة الشعبية جاءت ممتزجة بأحداث الاقاصيص .

يقول الدكتور فؤاد حسنين : «تمتاز العقلية العربية باعادة تأليف القصص القديمة التي تتوارثها منذ اقدم العصور واظهارها في ثوب يكاد يكون جديداً ، وكتبنا الدينية ، سواء منها السماوية ، وغير السماوية ملأى بشتى القصص والاساطير والملاحم المتصلة بالنفس البشرية اتصالا مباشراً ، لذلك اصبح من السهل علينا ان نتعرف الى خلق القصة العربية وطريقه العربي في الافصاح عن نفسه ..»

وبذلك اتجهت الكثير من السير نحو القصة والحكاية وتلبست فيها واقتربت بذلك اقتراباً واضحاً من الادب ، وربما تكون مجموعة حكايات الف ليلة وليلة ممثلة لهذا الاتجاه .

السيرة الشعبية وموقف الادب الرسمي :

وبالنظر لما تمتلكه السير الشعبية من جنوح نحو الاسطورة فقد راى الجادون من المؤرخين والبلغاء العرب خطورة الاسطورة على مصادر الادب والتفسير والحديث فقال ابن كثير في تفسيره المعروف : «واما ما يذكره العامة عن البطال من السيرة المنسوبة الى دلهمة والبطال والامير

عبدالوهاب والقاضي عقبه فكذب وافتراء . ووضع بارد وجهل وتخبط فاحش . لايروج ذلك الا على غبي او جاهل . كما يروج عليهم سيرة عنترة العبسي المكذوبة وكذلك سيرة البكري . والدنف . وغير ذلك . والكذب المفتعل في سيرة البكري اشد اثما واعظم جرما من غيرها لان واضعها يدخل في قول النبي (ص) : «من كذب عليّ معتمداً فليتبوا مقعده من النار»

وقال السيوطي في الاتقان : «قال الامام احمد بن حنبل : «ثلاثة ليس لها اصول ؛ التفسير والملاحم والمغازي» .

وربما جاءت حملة اولئك المؤرخين والفقهاء على الحكايات والسير الشعبية ؛ نتيجة خشيتهم ان تنفذ او تلتف خيوط من الاساطير حول سيرة النبي (ص)

بيد اننا نرى السيرة النبوية الكريمة نفسها بعد ان تجاوزت عصر اسحق وابن هشام وغيرعم من الاقدمين ، وردت هي الاخرى بصورة لاتخلو من الحدث الاسطوري وخاصة في امتزاجها بالقصة والحكاية على ايدي الكثيرين من المؤرخين الاسلاميين المعتمدين انفسهم .

واننا ايضاً لنجد في كتب الحديث والتفاسير وبالذات في تفسير ابن كثير ، وفي الاتقان للسيوطي الكثير من الاساطير .

ولقد جاءت حملة المؤرخين والفقهاء الجادين على السير الشعبية قاسية جداً شأن الحملات التي وجهوها لبعض الشعراء والمغنين واصحاب الفنون الآخرى .

لقد تخطت السيرة الشعبية حدود الادب التقليدي الذي ظل ادباً (رسمّياً) لفترات طويلة .. ولم نجد في ذلك المناخ المترع بالتصورات والاحلام تصورات الانسان وتعلقه بأهداب الحلم الذي يشبع الامور الحية في نفسه والتي تتوق نحو الخلاص .

وكان ذلك في فترات معينة من تخلفها وركودها الفكري ، فترات كانت الامة العربية فيها تنظر نحو المستقبل المليء بالأمل .

يقول الاستاذ فاروق خورشيد معقباً على راي ابن كثير : «والذي احنق ابن كثير هذا الحنق كله ، وجعله ينطلق في هذه المجموعة من الالفاظ الجارحة ، هو الادب الذي راج بين (العامة) وسلب لبهم فصرفهم عن الادب المكفن ، الذي لايجدون فيه صدى لما في نفوسهم من احلام ، ولا ارضاء لما تريده حاستهم الفنية من رمز وتخييل ...»

لبهم

ورغم زحمة الاحداث في السيرة الشعبية (المتأخرة على وجه الخصوص) رغم ما فيها من ملابسات رغم كسرها في احيان كثيرة لأصول وقواعد الفن القصصي « وان كنا نسلم ان الكثير من الحكايات العربية ليست في مرحلة من البناء الفني ، بحيث يمكن اعتبارها اعمالا متكاملة ، الا اننا نضطر الى التسليم حيال السير المتأخرة التي تقدم لنا شكلا متكاملا لاعمال قصصية لها اصول وقواعد .. لابد لنا ان نسلم بأن هذه السير مرحلة من مراحل فن القصة العربية الذي لم يكف عن التطور لحظة منذ كان مجرد حكاية تروى للتسلية او طرفة تحكى للتفكه الى ان تصبح خطراً ، بمالها من نفوذ في نفوس المتلقين من عامة الناس» (١)

ومع ذلك كله ، فنحن عندما نعرض للسيرة الشعبية نرى لزاماً علينا ان نفرّق بين منهج التاريخ من ناحية ومنهج القصص الشعبي من ناحية اخرى ، التاريخ ينزع (التاريخ المنهجي الحديث) الى العقل والبحث في المقدمات وتحليل الاحداث واستخلاص النتائج ، في حين ان القصص الشعبي يتحكم الى الوجدان ، وينأى عن التعليل والتبرير والاستنباط .

وكان لابد للباحث – مع ذلك – الا ينظر الى المنهجين التاريخي والقصصي نظره الى المتناقض او المتضاد لانهما يكملان بعضهما . ويستندان الى بعضهما .. وذلك ما ينسحب على الموقف من السيرة الشعبية ايضاً .

من مصادر السيرة الشعبية

تناول موضوعات السيرة الشعبية وابطالها مجموعة من الباحثين والدارسين ولعل سيرة عنترة بن شداد هي السيرة الاكثر وروداً في المصادر الحديثة ، اذ تناولها الاصفهاني في كتابه الاغاني ، والالوسي في بلوغ الادب ، والدكتورة سهير القلماوي ، في (الف ليلة وليلة) والدكتور شكري عياد في (البطل في الادب والاساطير) ، والدكتور محمود ذهني : (عنترة بين التاريخ والادب الشعبي) والدكتور فؤاد حسنين في (قصصنا الشعبي) وفاروق خورشيد في كتابيه : (دراسة وافية للسير الشعبية) و (اضواء على السير الشعبية) ، والدكتور حسين نصار في (الشعر الشعبي العربي) .

اما سيرة ذات الهمة فتناولها فاروق خورشيد في كتابه (اضواء على السيرة الشعبية) وقد اشار المؤلف في هذا الكتاب الى وجود رسالة للدكتورة نبيلة ابراهيم حول سيرة ذات الهمة لم تطبع بعد .

وتناول سيرة الظاهر بيبرس الدكتور جمال سرور في كتابه (دولة الظاهر بيبرس في مصر) والدكتور عبدالحميد يونس (الظاهر بيبرس في الادب الشعبي) والدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور : الظاهر بيبرس ، وكتباً اخرى تناولت عصر الظاهر بيبرس .

وعن سيرة علي الزيبق ، كتب فاروق خورشيد فصلا في كتاب (اضواء على السيرة الشعبية) والدكتور فؤاد حسنين في (قصصنا الشعبي) وموسى سليمان في (الادب القصصي عند العرب)

اما عن سيرة سيف بن ذي يزن ، فنجد معلومات مهمة في كتاب الطبري (١/٩٤٥) ولدى الدكتور عبدالمجيد عابدين (بين الحبشه والعرب) وفاروق خورشيد في كتابه [سيف بن ذي يزن (صياغة جديدة)]، وفؤاد حسنين (قصصنا الشعبي)

وعن سيرة ابي زيد الهلالي افرد الدكتور عبدالحميد يونس : (الهلالية في التاريخ والادب الشعبي) والدكتور محمد فهمي عبداللطيف : (ابو زيد الهلالي) واحمد رشدي صالح : (فنون الادب الشعبي) وموسى سليمان في (الادب القصصي عند العرب)

السير الذاتية :

مقدمة :

الترجمة الذاتية هي عملية الكشف عن جوانب الشخصية اثناء عملية الصراع التي تقوم بين شعور الكاتب بذاته وموقفه من المجتمع وموقف المجتمع منه ومدى تفاعل احدهما بالآخر وتأثيره فيه .

وتكتمل عناصر السيرة الذاتية اذ استطاع صاحبها ان يطبع ترجمته بالصراحة والوضوح والشمول .

بذاتيته

قيمة السيرة الذاتية ان يترجم لنا الكاتب شعوره بذاتيه ووحدته اي صورته الشخصية ، كما تبدو في مرآة الذات من ناحية ، ومواجهة الذات للاخرين .

للسيرة الذاتية قيمة اخرى ، انها اقل عرضة لآفة التذكر الناقص ، وكتاب السير الذاتية قليلا ما يكونوا امناء في تدوين افكارهم ، ومخاطراتهم ، ومن هنا تأتي «الاعترافات . او «اليوميات» اكثر التصاقاً بالاحداث واشد مواجهة للذات .

وليست بالضروري ان تأتي السير الذاتية او الاعترافات باشغال مباشرة ومستقلة ولكنها قد تأتي ضمن روايات .

وبالفعل فقد استفاد من هذا المنهج كتاب السيرة الذاتية من الغربيين لان الفن القصصي والروائي يسمح بملء الثغرات التي يواجهها كاتب السيرة بعنصر الخيال القصصي ، كما حاول اولئك الكتاب الاستفادة من علم النفس في تشريح المواقف الانسانية ، وقد استخدم فرويد نظرياته السايكولوجية على بعض من تناول سيرهم ، مثل كتابه عن الفنان الايطالي دافنشي وغيره .

السيرة الذاتية في الادب الغربي وفن الاعتـــراف

نجد العناية بالسيرة الذاتية في الادب اليوناني تاخذ توجيهها نحـو الانسان بصفة اساسيّة ، وان كان ذلك الجانب محدداً باعتبارات عديدة، لامجال للخوض فيها ؛ فهناك اشارات الى اصحاب المؤلفات مثل سولون ، اكسينوفان .

اما الرومان فقد ازدهر عندهم فن السيرة الذاتية ، وظهر في مطلع القرن الاول الميلادي كتاب وشعراء يعرضون ذكرياتهم الخاصة مثل «سيلا» و «قارون» وغيرهما .

ولقد ساعد على ازهار السيرة التوجه الانساني للمسيحية التي تدعو الى مراجعة الضمير ، ومحاسبة النفس ؛ ومن تلك المحاولات المبكّرة «اعترافات جان جاك روسو» . (١٧١٢ــ١٧٧٨) التي اضافت الى فـن السيرة في الغرب طابع الصراحة والوضوح والجراة ثم ظهرت «اعترافات دوماس دي كوينس» و «جورج مور» .

ولقد اعتبرت تلك الاعترافات اعمالا ادبية ذات قيمة يضاف اليها الكثير مما ابدعته اقلام «نيتشه» في كتابه «هاهوذا الانسان» ويوميات كير كجورد وجيته وتولستوي وغيرهم .

ولكن علينا ان نكون اكثر حذراً في تقيم تلك الاعترافات، ونقر لادب الاعتراف الذي شاع في الغرب بشكل مغرق في الصراحة انه لم يحقق دائماً ادب الاعتراف كما يفترض له ان يكون .

لقد جاءت اكثر المذكرات التي وصفت بالصرحة المتناهية فضائح اكثر منها مذكرات ، ربما لارضاء نوع من رغبات الجمهور الذي كثيراً ما كان يطالب بهذا الشكل من الاعترافات الى حد يصل الى الفضول ، وهذا ما جعل تنسون ــ مثلاً ــ يقول : «باي حق يطالب الجمهور بمعرفة فضائح

حياة بيرون الخاصة ، بعد اعطائكم بيرون فكره وقلبه . وهذا وحده يجب ان يكون كل ما يعنيهم من بيرون» .

ولكن الاختلاف عند الكتاب الغربيين يؤول الى موضوعات اكثر تشعباً . فيما يطالب تنسون بالمعنى الاعمق ، وران ستراشي وهو من كبار كتاب السيرة ينادي بأن تلك (الخصوصيات) هي وحدها التي تجعل للسيرة طعماً وحياة .

السيرة الذاتية في التاريخ العربي والاسلامي :

من الواضح ان العرب اطلعوا ووقفوا على بعض الترجمات الذاتية في لغات اجنبية وترجموها ، وكان من ابرزها ترجمة الفيلسوف والطبيب اليوناني جالينوس (١٣٠-٢٠٠) التي نقلها الى العربية حنين بن اسحاق ، وقد ذكرها ابن ابي اصيبعة بعنوان : «رسالة فيما اصابه من المحن والشدائد» والذي قلّده في كتابة سيرته ، وتبعه الرازي الذي كتب «السيرة الفلسفية ونشرها بول كراوس ضمن «رسائل فلسفية» لمحمد بن زكريا الرازي وابن الهيثم في كتابه «مقالة له فيما صنّفه من علوم الاوائل» وكذلك ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) في بعض من مؤلفاته اذ وصف سيرته وتاريخ حياته العلمي .

ولقد غزر انتاج الفلاسفة والعلماء والادباء والرحالة في مجال الترجمة الذاتية . اما الصوفية فقد نشطوا في كتابة تجاربهم الشخصية ابتداء من الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) في «النصائح» ويبدو ان الغزالي نهج نهج المحاسبي في كتابه «المنقذ من الضلال» والذي يعتبر وثيقة مهمة قيمة لحياة الغزالي الروحية . وانتهاء بعبد الوهاب الشعراني (٩٧٣هـ) في كتابه : «لطائف المنن» .

ثم بدأ الخط البياني لكتابة السيرة عند مفكري الاسلام (في القرن السادس) بالانحراف نحو العناية بالانساب (محاولين ان يصلوا بها الى آدم) ، كما فعل علي بن زيد البيهقي (ت٥٦٥هـ) في كتابه «مشارب التجارب» ذكره ياقوت الحموي في كتابه « معجم الادباء » وكما فعل احمد بن علي بن المأمون (ت٥٨٦هـ) ؛

ومن اشهر ترجمات القرن السادس الهجري مذكرات اسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ) في كتابه المعروف : «الاعتبار» وهو تسجيل لحياة هذا الرجل وكشف لشخصيته وتوثيقاً لعصره .

في القرن السابع امتزجت كتابة السير بالمشاهدات ومن امثلة هذا الاتجاه عبداللطيف البغدادي (ت٦٢٩هـ) الذي كتب سيرته كذلك ، فعل

ابو شامة (ت٦٦٥هـ) في «ذيل الروضتين» الا ان سيرة ابن خلدون الذاتية المعروفة باسم «التعريف» تعد اول سيرة ذاتية مستفيضة تتناول بالتفصيل حياة صاحبها وما احاطه من حوادث منذ نشأته الى مماته . وبعد ان كانت تذيلا «للعبر» نقحها وجعلها مستقلة في كتاب يعرض لحياته ونشاطه السياسي والعلمي والعقلي حتى قبل وفاته بأحد عشر شهراً .

القرنان التاسع والعاشر شهدا ظهور سير وتراجم كثيرة لعل اشهرها كتاب الجزري (ت ٨٣٣هـ) «غاية النهاية في طبقات القراء» والسخاوي (ت ٩٠٢هـ) في كتابه «الضوء اللامع» وجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) في كتابه «حسن المحاضرة» .

المصادر العربية للطبقات والتراجم :

اهتم المؤرخون المسلمون بترجمة رجالهم فاتجه بعضهم (من الرواة والمحدثين على وجه الخصوص) الى ترجمة الرجال بحسب اختصاصاتهم العلمية او بحسب مذاهبهم التي ينتمون اليها .

وسار آخرون منهم باتجاه الترجمة حسب العصور أو حسب الاقطار ، ومنهم من لم يتقيد بهذه الطريقة او تلك . فترجمة لسير عامة ، غير ان اكثر السير اهمية في التاريخ الاسلامي هي كتب الطبقات :

بدأت كتب الطبقات تظهر في عصر التدوين ، وكانت الغاية منها تصنيف رجال علم او فن او مذهب ، كل جيل في طبقته ، ومنشأ هذا الاتجاه في تدوين التراجم انما هو علم الحديث ورغبة اصحابه في تصنيف رواته على طبقات . وبذلك يتسنى للمحدثين دراسة الانسانية ونقدها ، ثم انتقل تصنيف الطبقات الى العلوم الاخرى . فألفت الكتب في طبقات الفقهاء والنحاة والشعراء والمفسرين والحكماء والشعراء . في البداية كانت طبقات الصحابة حسب تواريخها :

١ ـ الطبقات الكبيرة : ابن سعد (محمد الواقدي ت ٢٣٠هـ/٨٤٥م) اشتمل على سيرة الرسول . وتناول ذكر المغازي كما جمع تراجم البدريين من الصحابة ، وفيه تراجم الانصار والمهاجرين ممن لم يشهدوا بدراً ، واسلموا قبل فتح مكة ، وفيه ايضاً تراجم التابعين ، ويضم الكتاب نحو ٣٠٠٠ ترجمة .

٢ ـ الاستيعاب في معرفة الاصحاب : ابن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧١م) معجم تاريخي للصحابة ورواة الحديث ، ابتدأ بسيرة الرسول (ص) ثم رتّب الصحابة فيه على الحروف ويحتوي على نحو (٣٥٠٠) ترجمة

٣ ـ اسد الغابة في معرفة الصحابة : ابن الأثير (عزالدين محمد بن محمد ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) معجم رتبه مؤلفه على حروف الهجاء للصحابة والتابعين حتى عصر المؤلف ، ودّون فيه نحو (٧٥٠٠) ترجمة معتمداً فيه على من سبقه من كتب التراجم واستدرك ما فاتهم .

٤ ـ الاصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر العسقلاني (احمد بن علي ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) معجم مطول في تراجم الصحابة والتابعين الّفه على حروف المعجم اورد فيه ذكر الصحابة الذين ولدوا في زمن النبي والمخضرمين والذين ادركوا الجاهلية والاسلام ومن ذكر على سبيل الوهم ، كما خص جزءاً بالصحابة الذين اشتهروا بالكنى ، وقد ذكر النساء والى جانب تلك المصادر الاساسية توجد تراجم اخرى مثل اعلام الاصابة للخليلي الذي استدرك عليه ابن فتحون وروضة الاحباب في مختصر الاستيعاب للادرعي وتجريد اسماء الصحابة للذهبي ، ودر الآثار وغرر الاخبار لأبي زكريا المقدسي .

كتب الطبقات :

اولا : طبقات الحنفية :

١ ـ الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ، ابن ابو الوفا القرشي (عبدالقادر بن محمد ٧٧٥هـ/١٣٧٣م

٢ ـ تاج التراجم في طبقات الحنفية : ابن قطلوبغا (ابو العدل زين العابدين ت ٨٧٩هـ/١٤٧٤م)

ثانياً ـ طبقات المالكية :

١ ـ الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب : ابن فرحون اليعمري (ابراهيم بن علي ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م) .

ثالثا ـ طبقات الشافعية :

١ ـ تهذيب الاسماء واللغات : النووي (يحيى بن شرف ت ٦٧٦هـ /١٢٧٧م)

٢ ـ طبقات الشافعية الكبرى : السبكي (تابع الدين عبدالوهاب بن علي ت ٧٧١هـ/١٣٧٠م)

رابعاً ـ طبقات الحنابلة :

١ ـ طبقات الحنابلة : ابن ابو يعلى (ابو الحسين محمد بن محمد ت ٥٢٦هـ/١١٣١م)

٢ ـ الذيل على طبقات الحنابلة : ابن رجب (عبد الرحمن بن احمد ت ٧٩٥هـ/١٣٩٣م)

خامساً ـ طبقات القراء والمفسرين :

١ ـ غاية النهاية في طبقات القراء : ابن الجزري (محمد بن محمد ٨٣٣هـ/١٤٢٩م)

٢ ـ طبقات المفسرين : السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١ هـ/١٥٠٥م)

سادساً ـ طبقات المحدثين :

١ ـ الجرح والتعديل : ابن حاتم الرازي (محمد بن عبد الرحمن ت ٣٢٧ هـ/٩٣٨م)

٢ ـ تهذيب التهذيب : ابن حجر العسقلاني (احمد بن علي ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)

٣ ـ الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الاسماء والكنى : ابن ماكولا (علي بن هبة الله ت ٤٧٥هـ/١٠٩٥م)

٤ ـ المشتبه في الرجال : الذهبي (محمد بن احمد ٧٤٨هـ/١٣٤٨م)

٥ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال : الذهبي (محمد بن احمد ٧٤٨هـ/١٣٤٨م)

٦ ـ كتاب الرجال : النجاشي (ابو عباس احمد بن علي ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)

وهناك رجال الكشي ، للكشي (محمد بن عمر ت ٣٤٠هـ/٩٥١م)
ورجال الطوسي ، للطوسي (ابوجعفر محمد بن الحسن ت٤٦٠هـ/١٠٦٧م)
اما اشهر كتب التراجم فهي :
اولا : تراجم القضاة :

١ ـ اخبار القضاة : وكيع (محمد بن خلف بن حيان ت٣٠٦هـ/١١٨م)

٢ ـ كتاب الولاة وكتاب القضاة : الكندي (محمد بن يوسف ت٣٥٠ هـ/٩٦١م)

ثانياً ـ تراجم اللغويين والنحاة :

١ ـ طبقات النحويين واللغويين : الزبيدي (محمد بن الحسن ت ٣٧٩هـ/٩٨٩م)

٢ ـ نزهة الألباء في طبقات الادباء : ابن الانباري (عبدالرحمن بن محمد ت ٥٧٧هـ/١١٨١م)

٣ ـ انباه الرواة على انباه النحاة : القفطي (علي بن يوسف ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)

٤ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويتين والنحاة : السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)

ثالثاً ـ طبقات الحكماء والاطباء

١ ـ طبقات الاطباء والحكماء : ابن جلجل (سليمان بن حسان ت ٣٧٧هـ/٩٨٧م)

٢ ـ اخبار العلماء باخبار الحكماء : القفطي (علي بن يوسف ت ٦٤٦/١٢٤٨م)

٣ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء : ابن ابي اصيبعة (احمد بن القاسم ت ٦٦٨هـ/١٢٨٩م)

رابعاً ـ تراجم الادباء

معجم الادباء : ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م)

خامساً ـ تراجم الشعراء

١ ـ طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين : ابن سلام (محمد بن سلام الجمحي ت ٢٣١هـ/٨٤٦م)

٢ ـ الشعر والشعراء : ابن قتيبة (عبدالله بن مسلم الدينوري ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)

٣ ـ طبقات الشعراء : ابن المعتز (عبدالله بن محمد ٢٩٦هـ/٨٦١ـ٩٠٨م)

٤ ـ الاغاني : الاصفهاني (ابو الفرج علي بن الحسين ٣٥٦هـ/٩٦٧م)
معجم الشعراء : المرزباني (محمد بن عمران ت ٣٨٣هـ/٩٩٤م)

٦ ـ يتيمة الدهر في شعراء اهل العصر : الثعالبي (ابو منصور عبد الملك بن محمد ٤٢٩هـ/١٠٣٧م)

٧ ـ دمية القصر وعصرة اهل العصر : الباخرزي (علي بن الحسن ت ٤٦٧هـ/١٠٧٤م)

٨ ـ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة : ابن بسام (ابو الحسن علي ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م)

والى جانب هذه المصادر الزاخرة توجد كتب لتراجم شعراء امثال خريدة القصر وجريدة العصر للكاتب الاصفهاني (٥٩٧هـ/١٢٠١م)، وسلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، لابن معصوم ت ١١٠٤هـ/١٦٩٢م)

السيرة الذاتية في الادب العربي الحديث

في العصر الحديث ، بالتحديد مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي ، نقف ازاء تراجم ذاتية قليلة لكنها كانت في وقتها مؤثرة في الفكر وفي الادب العربي المعاصر ، علي مبارك (١٨٢٣ـ١٨٩٣) في «الخطط التوفيقية » من ابرز تلك الاعمال ، في مطلع القرن العشرين كان محمد كرد علي (١٨٧٦ـ١٩٥٤م) في كتابه «خطط الشام» . المذكرات

ونتيجة لازدهار ادب السيرة الذاتية في الغرب وتأثير اتجاهه في الادب العربي ظهرت العديد من الاعمال الادبية ذات المستوى الجيّد ، والتي كانت اقرب الى الاعترافات .

ولقد نهج هذا النهج العديد من كتاب وشعراء الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن . مثل عبدالرحمن شكري في «اعترافاته» وطه حسين في «الأيام» و سلامة موسى في «تربية سلامة موسى» واحمد امين في «حياتي»، وميخائيل نعيمة في كتابه «سبعون» ، وتوفيق الحكيم في «زهرة العمر» و «سجن العمر» و «يوميات نائب في الارياف» ، والمازني في «ابراهيم الكاتب» والعقاد في «سارة» «وانا» و «حياة قلم» .

لاشك ان اولئك الكتاب كلهم او بعضهم قد تأثروا باسلوب المواجهة للذات الذي ظهر في الغرب ، وقد امتاز هذا الاسلوب بالصراحة والواقعية حتى لقد بلغ الحد ببعضهم ان يكشف عن الزوايا الخفية من سيرهم الذاتية ، وكالتأكيد ـ مثلا ـ على الحالات والنزعات الجنسية والعاطفية .

على ان ادب الاعتراف ليعتبر من الاشكال الفنية الحديثة في الادب العربي المعاصر ، ولقد اضاف الى هذا التراث الادبي عدد لابأس به من كبار كتاب العربية المعاصرين مجموعة هامة من الاعترافاتالتي تضيء الكثير من الجوانب الخفية في ادبهم او حياتهم او تاريخ بلادهم ، وقد تجتمع هذه كلها في اعتراف واحد ،

وتتفاوت اعترافات ادبائنا من حيث درجة الاحاطة والصدق والموضوعية ، كما تتفاوت من حيث قيمتها الفنية ونوعية الصياغة الادبية فيها ، فأيام طه حسين ـ مثلا ـ تختلف عن تربية سلامة موسى ، وكلاهما يختلف عن حياة احمد امين التي تختلف بدورها عن سبعينية ميخائيل نعيمة وزهرة عمر توفيق الحكيم .

التاليف والكتابة حول السيرة ، فنها وتأريخها لايتسع لها مقال بل قد يضيق بها كتاب ، لانها تحتاج الى كتب لكن الشيءالمهم في دراسة السيرة هو حاجتها المستمرة للتقييم والبحث والاضافة .

في قراءة السيرة نستطيع ان نحيا حياة غير حياتنا ، حياة المئات من غيرنا بكل قوتها ومعناها وابعادها الحقيقيه . واذا بنا قد حققنا نوعاً من التوازن العقلي والنفسي الذي يجعلنا نخرج من متابعتها ، وقد استعدنا دروساً ، واتخذنا لانفسنا عبراً واتعاظاً بالغير .

مصادر البحث

يمكن اعتبار معظم المصادر الاساسية الواردة ذكرها في هذا البحث هي ما اعتمدناه في الدرجة الاولى في استقاء المعلومات الاولية . الى جانب مصادر ثانوية حديثة كالفهارس الوصفية لمصادر التراث وبعض الدوريات والكتب الحديثة في لغات اوربية .

ملاحظات على محاضرة "المسيرة"

ممه الخطأ الصواب

١٢/٢ الغيرمنظورة = غير المنظورة

٢٣/٤ نسأنا = نبشأنا

٢٤/٤ انسان = انساناً

٨/٥ شيى } شيئاً

فكثيرما | فكثيراً ما

٩/٥ المصلحين = المصلحون

٥/اخير كتباً = كتب

٧/٧ كتباً = كتب

١٤/٨ لم يعنى = لم يعن

٨ /١٩ احاديث الصحاح = الاحاديث الصحاح

١٠/ع قبل الاخير عروق = عروقاً

١١ /٣ من الوسط رنيان = رنيان

١٢/١ وهو = وهي

٥ لتهيؤه = لتهيئه

١٣ /١ قصص = قصصاً

١٤ ٤/ من الوسط احتق به لشر = ابن بشر

٢ = = لهم = عقولهم ؟ ← لبهم

١٦ /٤ = = يكونوا = يكونون

١٧ /٨ داشتي = دافنشي

٢٠/٥ سطر الاسفل تابع الدين = تاج الدين

٢ = = ابن ابو يعلى = ابن ابي يعلى

٢٢ / الاخير ابن معصوم ت ١١٠٤ ؟ الصواب انه وفاة

ابن معصوم سنة ١١٢٠ هـ

٣ ٦/ خطط الشام = الصواب (المذكرات) وقد كتب

فيه محمد كرد علي ذكرياته وسيرته ولا يخفى عليكم

انه كتاب خطط الشام كتاب تاريخي جغرافي

ادبي

ومما اذكره ان الامير شكيب ارسلان وضع كتاباً

بعنوان سيرة ذاتية ترجم فيه لنفسه ونشاطه

الادبي والسياسي .

هذا وتفضلوا بقبول تحياتي وتمنياتي للمجلة

(توقيع) الرشودي

عبد الحميد الرشودي

٥/٧/١٩٨٧

